قراءة متواضعة
في قصة (تائهة في محطات الدنا ")

المنشورة في العدد (٣٩)

للكاتبة : سكينة قدور

بقلم : محمد عبد الرازق أبو مصطفى ـ فلسطين

أسلوب شائق وجذاب ذلك الأسلوب الذي تُقدم به الكاتبة قصتها وهو على غير ما تعودنا عليه من السرد القصصي المعهود فقد فاجأتنا بأسلوب غير مباشر في السرد وبلغة أقرب إلى الشعر ، وكلمات رقيقة ومرهفة فيها من التمازج ما يجمع شتات الفكر ولعل هذا على عكس عنوان القصة .

لقد عبرت الكاتبة بكل ثقة وإخلاص لتؤدي رسالة في منتهى الروعة والجمال ، حيث إن آخر جملة في قصتها لتنسج في الفكر ألف سؤال وسؤال .

اختارت اللون الأزرق مرة للبحر وأخرى للشيطان ومرة ثالثة من صنع الأجنبي ، مع أن اللون الأزرق هو اللون الأول في منظومة الألوان الهادئة والشاعرية ، هي على الترتيب في ألوان الطيف (الأزرق ، النيلي ، البنفسجي) وربما أرادت الكاتبة بذلك أن تبيّن أن اللون الأزرق هو خاص بزرقة عيون أبناء الغرب رغم أنها لم تصرح بذلك في قصتها علانية - لتنقل صورة الحقد الأجنبي على المسلمين من قبل الغرب وعملائه .

فها هي في الفقرة الأولى (هي أيدي السوء يا أمي على كل الدروب ، تسرقُ الحق جهاراً بأساليب الذئاب الوادعة) ترسم لنا صورة الدخلاء في جميع أشكال الحياة وألوانها (على كل الدروب) لتسرق حقنا في كل شيء .. في حرياتنا .. في أرزاقنا .. وأوطاننا .. في إعلامنا وأفكارنا، حتى في معاملة الأبناء لآبائهم وأمهاتهم كما تروي القصة ، وهذه كلها أساليب الاستعمارقديما وحديثا فتارة يحتل وتارة يدمر ، وتارة يتهمنا بالإرهاب لكي يجد له مدخلا في الأوطان ، وهذه كلها وسائل الذئاب في مطاردة فرائسها وملاحقتها لاصطيادها والتلذذ بها .

في الرؤيا المخيفة صورت الكاتبة قلب الأم الرؤوف الرحيم بولدها رغم شدة الطعنة (ورأته يطعن قلبها المرهق والمثقل بأصناف الهموم، برميه بسهام من ذهب ، ونسيمات ابتسام عذب ذراها على جرح الفؤاد) فأي قتيل في الوجود كله يرى أن السهام التي تطلق على قلبه هي مصنوعة من

الذهب حتى ولو كانت كذلك ، وأن رياح الموت التي هبت على فؤادها المكلوم ما هي إلا نسيمات من الابتسام العذب يذروها على تلك الجراح الغائرة لتكون بمثابة البلسم الشافي .

ورغم أن الأم على يقين تام بأن ابنها لم يكن بارا بها يوما من الأيام (ذا الذي فرش لها الأرض بأنواع العذاب وإنفاق الكلمات المفرغات من كل حنين) ، إلا أنها لا تريد أن يشعر بأي شيء من عذابها (بينما جدّت يداها تقلع السهم الرشيق أو تخبئه أو تزيد السهم غورا وكتما للعذاب وجحودا بالفؤاد) فكلمة (جدّت) من عجوز في نهاية عمرها تزخر بالمعاني النبيلة من الأم ، وهذا الترتيب الرائع البديع في اقتلاع السهم وإن لم يُجدِ ذلك فتخبئه وإلا فالصورة المؤثرة البديعة : إدخال السهم أكثر وأكثر في فؤادها وهي تكتم عذابها وجراحها حتى ولو انتهى الأمر بإنكارها الفؤاد - أصلاً - وجحوده .

وهنا لابد لنا من أن نقف عند قول الله عز وجل : " وقضىٰ ربُّك ألاَّ تعبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ وبالوَالدَيْن إحْسَانًا إمَّا يبْلُغنَّ عندك الْكبر أحدُهُمَا أوْ كلاهُمَا فلا تقُل لَّهُمَا أُفّ ولا تنهرْهُمَا وقُل لَّهُمَا قوْلاً كريمًا ﴿٢٣﴾ واخْفض لَهُمَا جنَاحَ الذُّلّ من الرَّحْمَة وقُل رَّبّ ارْحمْهُمَا كمَا ربَّيَاني صغيرًا ﴿٢٤﴾ (الإسراء) .

أعظم أمّ هي الأرض ، ومن يرحل عن أرضه فأقل القليل أن يوصف بالجنون (هو مجنون تسمر في أرض جنونه ، وأبى أن يرحل عنها ، إذ بها ذكرى جراحه وعذاب العقل قبل أن يخفى ويشقى بغيابه) . صورة مزدحمة بمعاني الروعة والإبداع ، إنها دعوة صارخة للتشبث بالجذور وبالأرض، ودعوة ضد الهجرة حتى ولو كان الإنسان في أقصى حالات ضياع العقل ، فحتى المجنون يتسمّر في أرض جنونه ، لأن بها على الأقل ذكرى الجراح ، تلك الذكرى التي تعتبر عذبة جدا مقابل الرحيل عن الأرض ، والأغرب من ذلك كله أن هذا المجنون يخشى على أرضه من إقامة الغريب عليها ولو ليلة واحدة فقط (خشية أن تنوي المبيت) .

اقتنصت الكاتبة فرصة رائعة جدا ما دام الحديث يجمع بين الأم وابنها تارة ، وبين المجنون وأرض جنونه تارة أخرى ، لتختم قصتها الرائعة بالدعوة للعمل الجاد والدؤوب لاقتفاء الشياطين الذين يعيثون فسادا في أرض الوطن مهما بلغ الجهد والنصب (ومضت تلك العجوز تبحث عن ابنها حينا وعن الشيطان الآخر في محطات الوطن) ، فإذا كان ابنها شيطانا في محطة انتظار واحدة للقطار فمن للشياطين الآخرين في المحطات المتعددة للوطن الحبيب ، في محطات كرامته وإعلامه واقتصاده وحريته ومناهجه وأمنه .

من يكون هذا موقفه مع أمه فكيف يكون موقفه مع الأرض والوطن ؟! ولعل الكاتبة أرادت بالأم في قصتها ذلك الوطن الذي يطعنه أبناؤه بخناجر الغرب وسمومه الفتاكة ينهبون تراثه وكرامته وشرفه استجابة لما تمليه عليهم شياطينهم الحاقدة على الإسلام والعروبة .

صور متدفقة وأفكار نوعية وجريئة . ولغة صلبة ومخلصة وغيرة جامحة لأبعد الحدود على الإسلام وأبنائه ، وفهم صريح وجليّ للواقع الذي نعيشه في تيه حقيقي لما يجري حولنا من التغلغل الأجنبي في تربية أجيالنا وتنشئتها (وحفيف البدلة الزرقاء من صنع الذي خلف البحار) .

معان كثيرة يجب إدراكها والإحساس بها والعمل على نقلها إلى جميع أبناء الأمة الإسلامية في كل مكان عسى أن ينتبهوا ويفيقوا من سكرة التقليد الأعمى (بلا وعي ولا إدراك) لكل ما يجود به علينا الغرب من أفكار دخيلة ليس لها علاقة - البتة - بديننا الإسلامي وشريعتنا السمحة الغراء .